صراع بين العامية والفصحى بالمغرب

ان اغلب الأصول والقواعد الأساسية مشتركة بين الفصحى والعامية المغربية حتى ما يتصل بالقلب والابدال والتسهيل والترخيم والنحت وغير ذلك وتمتاز العامية (1) بمظاهر بسيطة تجعلها فى بعض الاحايين اكثر ايغالا فى القلب والتسهيل.

ونضرب لهذه الوحدة الاصلية امثلة وجيزة لا تنفرد بها العامية فى المغرب الاقصى وحده بل تمس اللهجات الدارجة فى معظم اجزاء العالم العربي (2) ، فمن مجالي التخفيف فى اللسان الفصيح والتى اثرت فى السنة العامة وجود مترادفات يختلف بعضها عن بعض باضافة حرف واحد وقد اختار الدهماء لتخاطبهم اليومي اخفها نطقا وان كان اكثرها احرفا مما يؤكد ان عقلية العامة لا تنحرف عادة عن الأصيل الا اذا لم تجد فى صيغه ما يتفق وطبيعتها الميالة الى التسهيل ومن امثلة ذلك : (رز — ارز) (رز) — سبل (سنبل) (سبولة فى العامية) — سطل وسيطل (سطل) — تحوان واتحوان (تحوان) — لوباء ولوبياء (لوبياء) — مونة ومؤونة (مونة) — وز —

---

1) العامية هي ما يسميه الجاحظ بلغة المولدين والبلديين (البيان والتبيين ج 1 ص 111) وقد لاحظ ان فى كل مدينة السنة ذلقة غير ان اللحن كان فاشيا فى العوام (ص 111) .
وقد تحدث احمد امين عن العامية فى القرن الرابع، فقال: « ان اللغة العامية اصبح معترفا بها يبحث فى الفاظها واساليبها وينتقى منها خيرها الا بعض علماء كأبى العلاء المعرى ... (ظهر الاسلام ج 2 ص 100) .

2) توجد فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة للهجات من اهدافها استقراء الالفاظ والتراكيب الجارية على السنة اهل الاقطار العربية من الناحية الصوتية ومن ناحية المعنى وتدوين هذا فى معاجم واطالس لغوية وقد اتخذت اللجنة لهجة القاهرة مقياسا وترتكز اللجنة فى هذا البحث على تنقل القبائل لما له من أثر كبير فى لهجات الاقاليم وتطورها واختلافها (مجلة المجمع جزء 7) .

اوز (وز) ــ دغر ودغمر اي خلط (دغمر) ــ طلمس وطمس الكتابة بمعنى محاها(1) ــ فطحه وفرطحه اي (جعله عريضا : فطح وفرطح) ــ قصم وقصمل اي قطع (قصم) هدم ودهدم (هدم) .

وهناك مترادفات يختلف ترتيب حروفها مثل جبذ وجذب (جبذ) وخربش وخرشب العمل اي لم يتقنه (خربش) وخشخش وشخشخ (2) السلاح صوت ــ دعس وعدس (داس) (3) ــ دعم وعمد (عمد) ــ ادغم وادمغ « ادغم » تسكع وتكسع (تسكع) ــ فطس وطفس اي مات (طفس) لطخ وطلخ (لطخ) يئس وأيس (أيس) وقد تستعمل العامة الكلمتين مثل : كف وكفكف ــ كب وكبكب ــ هز وهزهز ــ ذر وذرذر الــخ .

أما النحت فامثلته كثيرة : ويلمه وهي منحوتة من اصلها (ويل لأمه)

صبحه اي قال له صباح الخير .

مساه : قال له مساء الخير

تويل : قال يا ويلي

فسقه : قال له يا فاسق

ما شا الله ــ (ما شاء الله) ــ ما طيبو (ما أطيبه) ــ محلاه (ما أحلاه) الخ .

ومن أمثلة الاتباع او الابدال بنفس المعنى :

العجر والبجر ــ حيص بيص (4) هين لين (سهل) ــ هش بش (مسرور) ــ الكوع والبوع (كعو وبعو) ــ الجوع والنوع ــ شيطان ليطان ــ حسن بسن الخ.

وهناك مآت الكلمات تحكي الاصوات او الحركات وتتحد فيها اللهجتان نذكر منها ما يلي :

زرزور ــ صفصاف ــ ريح ــ رعد ــ قبقاب ــ ناقوس ــ طبل ــ بوق ــ نبح الكلب ــ قاقت الدجاجة ــ طن او دن الذباب ــ وع الطفل الباكي ــ طنين الناقوس ــ خرير الماء ــ تغل ــ لحس ــ نفخ ــ بح ــ قحب ــ أح ــ عطس ــ بخ ــ صاح ــ زعق ــ ناح ــ ضرط ــ فسا ــ زمر ــ قطع ــ شق ــ دق ــ تختخ ــ تمتم ــ جمجم ــ غمغم ــ بعبع ــ بقبق ــ قرقر ــ وسوس ــ همهم ــ نحنح ــ خنخن ــ (تكلم من انفه) ــ قهقه ــ قرقر ــ صرصر ــ ولول ــ وحوح ــ

---

1) استعملت العامة الكلمتين : طمس بمعنى محى وطلمس بمعنى اخفى (الطلامس اي الطلاسم)
2) يستعملان في معنيين متقاربين (شخشخ وجهه اي جلب له العار) .
3) تطلق العامة لفظتي دحس (بالحاء بدل العين) وداس على مدلولين متقاربين
4) افرد ابو البركات الانباري كتابا خاصا لحيص بيص وقد توفي عام 577 هـ .

دقدق ـ وعوع ـ غرغر ـ طلطل ـ هرهر ـ زعزع ـ حثحث ـ ضعضـــع ـ شقشق ـ وقوق ـ زقزق ـ زرزر ـ طقطق ـ رشرش ـ رعرع ـ طنطن ـ تكتك.

اما الصيغ فكثيرا ما تتخذ نفس الوزن فى العامية والفصحى للتدليل على نفس المدركات كالمبالغة والتفضيل والبقية والسقاطة والتظاهر والتشبيه او التشبه والوصف مثل كنز (1) (مكنوز) وعلاج (دواء) ووقف (موقوف) وغصب (مغصوب) ونكسة (نجسة اي كثير النجس) وشتامة (كثيرة الشتم) وعيابة ومصلحة (اي صلاح) ومطهرة ومفسدة وحثالة وتفالة (اي بقية الثفل) وقمامة ونخالة ونشارة ونجـارة واحمق (اكثر حمقا) واخوف واطيب واسلم واخوا واعجب واعرف وجهد جاهد (اي شديد) وصيف صائف وهول هائل وعيشة راضية ومكان عامر (اي معمور) وخبر كاذب (اى مكذوب) ويمين فاجرة (اي مفجور فيها) وتفاتر (اظهر الفقر) وتباكى وتحامق وتجاهل وتماوت وتناعس وتشيطن وتنحل وتفرعن وتفرنج وتمدن وتوحش وبخل وجهل وسفه وضعف وفسق وغلط وكفر واحمق (اي موصوف بالحمق) وابلـه واعمى .

ويجمع المذكر فى اللسانين باضافة تاء مربوطة الى المفرد مثل : حمارة (اصحاب الحمير) وخيالة ورحالة وعسالة (اصحاب العسل) وتشترك الفصحى والعاميـة فى الاشتقاق المنطقي من الفاظ ذات معنى حسي مجرد كالحمام من حم المـاء اي سخنه ومخدة من الخد والسماء من سما اي ارتفع والسمن من السمن والشباك من شبك والغمام من الغم اي التغطية والجارية اي التي تجري فى خدمة سيدهـــا والجمعة اي يوم الاجتماع فى الجوامع وحريم الرجل اي نساؤه (من تحريم المراة على غير زوجها) والصداع اي وجع الراس من صدعه اي شقه والغلة الدخل من كراء بيت او فائدة ارض من غل المكان اذا دخله .

ويكاد ينعدم فى العامية التغليب بالمثنى (مثل القمرين والخافقين والعشائـين والاصغرين والاسودين) واستعمال صيغة فعال المبني على الكسر (للدلالة على الافعال والاسماء) او المصدر نعتا او معظم صيغ المبالغة (مفعيل ومفعلة ومفعيل) او مفعلة للكثرة او المكان او افعل للتعظيم او التصغير (اعنق (اي طويل العنق) واعين واورك (اي عظيم الورك) واخفش (صغير العينين) او افعل للدخول (اتهم واشأم واغلس وانجـــد) .

---

1) كنز ومكنوز ذكره ابن سيده فى المخصص فى مادة كنز .
وتوجد صيغ عربية كثيرة انفردت بعض الاقاليم العربية باستعمالها مثل مصدر فعل المضعف على وزن تفعال مثلا حمل تحمالا بدل تحميلا فى المغرب واليمن ، قال الكسائي : « اهل اليمن يجعلون مصدر فعل تفعالا وغيرهم من العـرب يجعلونه تفعيلا » .

ومما امتازت به الفصحى ايضا افعال السلوب الدالة على الـزوال مثـل اعتب أي ازال العتاب واشكى اذا ازال الشكـوى وزيـغ اي ازال الزيـغ والميلان (زيغ بالعامية اثار الزيغ) وتائم وتحرج وتحنث اذا تجنب ذلك .

وكذلك زيادة الميم للمبالغة كزرقم اي شديد الزرقة .

ويجب أن يعيد التاريخ نفسه فى تفصيح العاميات العربية وتوحيدها فقـد تعددت اللهجات فى الجاهلية بتعدد القبائل الكبرى وخفت اوجه الاختلاف بما استوثق اذ ذاك من صلات فى الاسواق الاقليمية والمبادلات التجارية والمصاهرات وقد لعبت قريش دورا هاما فى انتقاء اجود اللغات ، فنسقت واجتبت افضل لغات العرب حتى صارت لغتها افضل لغاتهم (لسان العرب) فنزل القرآن بها وازدادت مظاهر الوحدة تحت راية الاسلام بالرغم عن الفوارق القبلية البسيطة التي ساندتها احرف القرآن السبعة وقد احتفظت السنة جهوية بميزات خاصة « من حيث التصريف والهيئـة والابدال واوجه الاعراب والبناء » (متن اللغة ج 1 ص 47) فقريش مثلا تفتح نون المضارعة واسد تكسرها والحجازيون يثبتون ما النافية وتميم تهملها اما الاختلاف فى الاسماء فلا يكاد يظهر الا فى لغة حمير التي ظلت محتفظة بكثير من مفرداتها (المدية الحميرية بدل السكين مثلا) .

ويتجلى الاختلاف بين لهجات العرب فى مظاهر مختلفة كالاظهار والادغام والاشمام والتفخيم والترقيق والمد والقصر والامالة والفتح والتسهيل والابدال وهو اختلاف فى الصور الظاهرة لمخارج الحروف مع وحدة اللفظ ، وقد عرف العرب منها قديمـا العنعنة عند تميم وقيس (ابدال الهمزة عينا) والكشكشة والكسكسة عند ربيعة (ابدال كاف الخطاب شينا) والغمغمة عند قضاعة (وهى اخفاء بعض الحروف) والفحفحة عند هذيل (ابدال الحاء عينا مثل حتى وعتى) واللخلخانية فى عمان واليمن (وهي حذف همزة ما شاء الله (مشا الله) والتلتلة فى بهراء وهي كسر تاء المضارعة (تلعب) والوتم عند اهل اليمن (قلب السين المتطرفة تاء كالنـاس فى النـاس)

---

1) لاحظ الاستاذ فريد ابو حديد (مجلة مجمع اللغة العربية ج 7 ص 205) ان حركة الكسر تكاد تكون شائعة فى كثير من الدول العربية مثال ذلك كسر آخر الاسم المضاف الى ضمير المؤنثة المخاطبة فيقولون فى الشرق انت مالك (يقول المغاربة مالك بفتح اللام) وهي لهجة لخم التي تكسر ما قبل كاف المخاطبة .

والوكم والوهم عند ربيعة وكلب (كسر كاف الخطاب وهاء الضمير (عليكم عنهم) والاستنطاء فى لغة سعد بن بكر وهذيل والازد وقيس والانصار وهي قلب العين الساكنة قبل الطاء نونا (انطى ــ اعطى) وما زالت مظاهر ذلك الى الان عند الاعراب .

والمشترك نفسه يرجع لتعدد الالفاظ للمدلول الواحد بين القبائل كما أن فى اللغة الموحدة نفسها اختلافا فى الابنية من لغتين الى ثلاث عشرة لغة (عباءة ــ عباية الخ) .

وقد ارجعت اصول الكلمات الواردة فى القرآن الى خمسين لهجة من لهجات القبائل علاوة على وجود كلمات معربة .

وظهر الانحراف فى الحركات الاعرابية منذ صدر الاسلام فسار العوام فى منهجهم المنحرف واستنحل هذا الزيغ اللغوي باختلاط العرب بالاعاجم بعد الفتوح فهب علماء اللغة لتقويم العامية وارجاعها الى اصالتها الفصحى وتجلى هذا المجهود فى « ادب الكاتب » لابن قتيبة « ودرة الغواص » للحريري فخف البون بين الفصحى والعامية اذا روعيت شساعته فى اللغات الراقية اليوم وبقيت العامية فى جميع مظاهرها لغة عربية محرفة الشكل غير مضبوطة القواعد . ان العامية احتفظت احيانا بالفاظ عريقة استعملها العرب واهملها المحدثون وقد راعت العامة مقتضيات التطور اكثر مما فعل اللغويون الذين جمد الكثير منهم وراء قواعد راسخة لا تنفعل للتيارات الحضارية المتجددة وقد حاول عرب الجاهلية تطوير اللغة استجابة لهذا الناموس وساعدهم على ذلك كون العربية كانت لغة منطوقة لا مقروءة وسارت العامة على نهجهم فاحتفظت ببعض الخواص الحية وعملت على تنميتها بما يتفق ولوازم التجديد ضمانا لاطراد الحياة وقد اضطر بعض الشعراء انفسهم كالفرزدق الى مسايرة هذا الاتجاه عندما استعمل ال بمعنى اسم موصول اليعمل واليضرب بمعنى الذي يعمل والذي يضرب وهى شائعة فى العامية وخاصة منها المغربية .

وقد حاولنا فى معجمنا هذا مقارنة بعض الالفاظ العامية فى المغرب ومصر والشام ويتجلى من موازنة كثير من هذه الالفاظ مع مرادفها فى المعاجم انها دخلت اولا الى اللغة الفصحى ومنها تسربت الى اللهجتين بسوريا ولبنان وكذلك بالمغرب والا فيصعب تعليل وجودها فى العامية المغربية التي لم تتاثر البتة باللهجة السريانية.

ولا ننس ان الشام وخاصة لبنان هو منبثق اللغة البونيقية او اليونانية التي اثرت فى البربرية المغربية منذ ثلاثة آلاف من السنين والبونية عربية الأصل (1) وقد سبقت لغة القرآن والفتح الاسلامي بالمغرب وكيفت كثيرا من المعطيات اللغوية لاسيما وان الفينيقيين الشاميين اسسوا فى المغرب الأقصى عاصمة هي تشمش او ليكس قرب العرائش منذ عام 1100 قبل الميلاد اي قبل تأسيس قرطاجنة بثلاثة قـــرون (814 قبل الميلاد) .

وهنالك مآت الكلمات التركية اندرجت فى عامية سوريا ولبنان طوال اربعـة قرون من الحكم التركي فأبعدت كثيرا من المقومات اللغوية عن عراقتها العربية وقد دخل عدد قليل منها الى المغرب منذ نفس التاريخ تقريبا اي فى عهد السعديين الذين كان لهم ارتباط بالباب العالي لا سيما فى الميدان الحضاري (الحياة والجيش والملاحة والادارة الخ) (2) .

وقد اشار الثعالبي فى فقه اللغة (طبعة 1378 — 1959 — القاهرة ص 450) الى اسماء فارسيتها منسية وعربيتها محكية اوصلها الى مائة وواحد واربعين منهـا البياع والدلال والبقال والجمال والطراز والخياط والند والبخور والغالية والحنـاء والمضربة والقمري والربعة والخرج والدواة والمرفع والفتيلة والمجمرة والمـزارق والطبل والشكال والقلية والهريسة والعصيدة .

ثم ذكر (ص 453) اسماء تفردت بها الفرس فعربها العرب او تركوها ، منها : الابريق والكوز والطبق والقصعة والسندس والياقوت والبلور والسميذ والكعـــك والسكنجبين والجلنجبين والفلفل والكروياء والقرفة والزنجبيل والسوسن والياسمين والمسك والعنبر والكافور والقرنفل .

---

1) اكد الاستاذ توفيق المدنى فى « تقويم المنصور » عـام 1348 (ص 72) ان الكشوف الحفرية ونقوش الحجارة اثبتت كنعانية الفينيقيين كما ابرزت ان كلامهم كان عربيا شديد الشبه بالعربية العامية المستعملة خصوصا بنواحى العاصمة التونسية وبجزيرة مالطة قبل ان تختلط اختلاطا فاحشا بمختلف اللغـــات الاوربية واهل مالطة هم بقايا العنصر الفينيقى الخالص .. » وقد نشر توفيق المدني (ص 72) نص الحفرية القرطاجنية التي وجدت فى البرازيل ويتضح منها تقارب البونيقية ولهجة شمال افريقيا .
ووجود هذه الحفريات بالبرازيل يدل على ان القرطاجنيين هم اول من اكتشف امريكا قبل الميلاد بـ 125 سنة .

2) راجع كتابنا «مظاهر الحضارة المغربية» و « معطيات الحضارة المغربية» (فصل: تاريخ دخول اللغة العربية الى المغرب) وكذلك كتابنا « تاريخ المغرب » وتاريخ افريقيا الشمالية القديم لكزيل Gsell و « العصـــور الغامضـــة للمغـــرب » للمؤرخ كوتيي « Siècles obscurs du Maghreb »

وقد تاثرت العامية المغربية بالفارسية عن طريق الدخيل فى المعجم العربي (1) لا بكيفية مباشرة لان المغرب ظل فى منحى عن التاثيرات الفارسية .

ومن امثلة المشترك الفارسي فى اللهجتين المغربية والشامية : بابا (اي الأب فى لغة الأطفال) وبازار (سوق) وبازاري وباس (لثم) وشاويش (وشاوش) وخردة (واصلها العربي الخرثي) وخواجه او خواجي (غني) ودرويش (فقير) وزنزانة (سجن ضيق) وزيره (جعله فى مكان ضيق) وسالف (خصلة شعر متدلية على الصدغ) وشبر اي اشبار (وهو حبل رقيق جدا) وشنطة (حقيبة صغيرة) وشيت (نسيج قطنى فيه رسوم والوان) وصباهي (صبايحي اي جندي) وطارمة (بيت خشبي ذو قبة) وطاقية (نوع من ملابس الراس) وقيطان (خيط مفتول من القطن او الحرير) وكخ (كخ بالمغرب اي رديء فى لغة الأطفال) ومارستان (مستشفى المجانين) وميخانة (حانة اي خمارة وتطلق على احد الاحياء بالمغرب) ونيشان (وسام) ونيشن (نيشن بالمغرب اي صوب القذيفة نحو الهدف) اما اليونانية فقد دخلت هي ايضا الى سوريا ولبنان قبل الميلاد بثلاثة قرون حيث استمر الحكم اليوناني بها مائتين وخمسين سنة قبل خضوعهما الى الرومان كما اندرجت عن طريق المترجمين السريانيين واليهود والعرب منذ اواخر الامويين بما اقحموه من الفاظ دخيلة فى القاموس العلمي العربي الذي اقتبس منه حكماء المغرب ونباتيوه او عشابوه وكتب الطب والعقاقير المغربية حافلة بهذه الالفاظ التي يتردد صداها فى لغة العوام مع شيء من التحريف الا ان وجودها فى عامية اهل الشام ابلغ نظرا للاتصال المباشر خلال حقبة طويلة من تاريخ البلاد .

ومن الكلمات العربية المقتبسة من اليونانية والتي دخلت الى العامية المغربية على ما يقال :

ياقوت ، وملوخية ، ومصطكى ، ولوبياء ، ولجنة ، وكروياء ، وكرنب ، وكافور ، وقيطون ، وقيراط ، وقيثارة ، وقنطرة ، وقنب ، وقمقم ، وقلم ، وقصدير ، وقرنفل ، وقرميد ، وقانون ، وقالب ، وقارب ، وقادوس ، وفندق ، وفنار ، وفلس ، وفص ، وفخ ، وطاجن ، ورطل ، ودلفين ، ودرهم ، وتؤلول ، وبلغم ، وبجماط ، وبطاقة ، وبارود ، واوقية ، واقليم ، والالماس ، والرز .

اما اللاتينية فقد استمدت منها اللهجتان الفصحى والعامية الفاظا يقال بان منها اسطبل ، وبوق ، ودينار ، وسجل ، وصراط ، وصاتور ، وطرطور ، وقرصان ، وفرن ، وقفة ، وقلنسوة ، وقميص ، وقنديل ، وقنطار ، وكوفية ، ومد (مكيال) ،

---

1) وكذلك بالفاظ من اللغة التركية مثل باشا وبكرج (اناء معدني) وخازوق وتخوزق (التخوزيق) وسنجق وطابور وطز (للاستهزاء والاستياء) وطوبجي (مدفعي) وصابونجي وجبدولي (صدرية) وجامكية (مرتب عسكري فى عهد الموحدين) وخواجي (تاجر) وبابوشة (بابوج) وبازار وباشادور وبرنامج الخ .

ومنديل ، وميل الخ (1) .

وبينما كان التاثير الاسباني في اللهجة السورية واللبنانية نادرا جدا اذا به يتخذ طابعا عميقا بالنسبة للعامية المغربية نظرا للتبادل الموصول بين الاندلس والمغرب خلال الحكم الاسلامي اي طوال ثمانية قرون ثم ثلاثمائة عام بعد ذلك احتل البرتغاليون والاسبان في غضونها مراكز هامة في شواطىء البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلنطيقي من المغرب (2) .

* * *

وقد عرف البربر كسائر البدو منذ اعرق العصور حياة بدائية لم تكن تخلو من مظاهر احتفظت بها قبائل صحراوية واطلسية الى الآن كالملكية الجماعية والاشتراكية الفلاحية والسكنى في اكواخ الطوب بالدساكر والاقتصار في الأكل على الكسكس والصيد وشرب الالبان والعسل والماء القراح ولبس الجبة والبرنس ووضع اكاليل الريش على الرؤوس واستعمال الحراب والاقواس والخناجر والدرقات الجلدية في الحروب وكان المغربي يرسم على الجدران صورا تمثل حياته اليومية في براعة فنية

---

1) من الالفاظ الفارسية الدخيلة الدربكة اى الطبل (واصلها تابوراك) والدمغة بمعنى الختم والطابع .
ويختلف هذا التاثير في الاقطار العربية الاخرى ولعل الدخيل من الفارسية في لغة العراقيين يوازي الدخيل فيها من التركية خلافا لما عليه الحال في مصر فان معظم الدخيل فيها في لغتها الشائعة من التركية ثم من اللغات الافرنجية (محمد رضى الشبيبى مجلة مجمع فؤاد الاول للغة العربية ج 8 ص 131) .
وديوان العراق لم ينقل من الفارسية الى العربية الا في عهد الحجاج الذي امر بذلك كاتبه صالح بن عبد الرحمن الذي كان يتقن اللغتين (تاريخ ابن خلدون ــ المجلد الاول القسم الثاني ص 437) .

2) ذكر برونو Brunot (هسبريس 1949 ــ العددان الثالث والرابع) ان اللغة الرومانية اللاتينية امدت العامية عن طريق الفصحى بالفاظ مثل مد وقصر او مباشرة بكلمات مثل الطابية وكرزية وكركور وذكر ان لفظ قنديل (Candi) مقتبس من اللفظ العربي Qindid وان الكنتة ماخوذة من التركية .
ولاحظ في مقدمة مذكراته حول المفردات البحرية بالرباط وسلا ان وفرة الالفاظ الاسبانية الدخيلة في هذه المفردات تدعو الى نسبة بعض الكلمات الى اصل يوناني لاتيني وهذا الغلط هو الذي وقع فيه سيموني Simonet في كتابه Glosario حيث ذكر مثلا ان الشابل Alose مستمد من اللفظ اللاتيني Sapidus وقد اعطى برونو صورة عن مروح التاثيرات الاجنبية في العامية البحرية بالرباط وسلا فذكر انه بالاضافة الى 456 لفظ عربي يوجد 217 كلمة اسبانية و 30 لاتينية يونانية و 6 فرنسية وايطالية و 6 انجليزية وكلمة واحدة برتغالية وعشر كلمات بربرية وعشر تركية واحدى عشرة كلمة مشكوك في مصدرها وذلك من مجموع يبلغ 753 لفظة ويلاحظ هنا قوة تاثير العربية الفصحى بالنسبة الى موانىء اخرى في المغرب مثل مستغانم بالجزائر ففي الرباط مثلا تسمى Chaloupe بالعشارية وفي مستغانم ببوطة من Bota الاسبانية
على ان البرتغالية قد تاثرت باللهجة المغربية حيث كان البرتغاليون يراسلون بالعجمية التي كانت عبارة عن برتغالية مملوءة بالالفاظ المغربية وكانوا يكتبونها بالحروف العربية (تاريخ المغرب كواساك Coissac de Chavrebière ص273)

رائعة كما يتحلى كالنساء بالاسورة والعقود وتمتاز المراة بنقش الأواني الخزفية ونسج الزرابي فى تعاريج هندسية ، وبرز الاطار السياسي القبلي فى شكل جمهورية صغيرة يمثلها مجلس منتخب وقد طعمت الحضارة الترطاجنية الشرقية هذه المعطيات الأولية بعادات جديدة كالطربوش والقميص الفضفاض والتكحل والاختضاب بالحناء والاختتان (1) وربما حدت البربر الى التفكير فى وضع احرف « تفناغ » على غرار الهجائية الفينيقية التي تكونت منها الالفبائية العربية اذا لم يكن البرابرة قد اقتبسوا هذه البادرة مباشرة من الهيروغليفية المصرية فى الجناح الشرقي لافريقيا الشمالية ويظهر ان اليهود النازحين من الشام وخيبر لم ينقلوا الى المغرب شيئا جديدا باستثناء الديانة الموسوية ونتف من العبرية لم تترك اثرا يذكر فى اللهجات المحلية .

ولعل اول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الاسلامي قد جاءته عن طريق القيروان التي بدات تنصهر فيها الحضارة الاموية بعد مرور ثلاثة ارباع قرن على الهجرة فاقيمت المساجد والدواوين والمصالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته دمشق آنذاك من روائع امتزج فيها العنصران الفارسي والرومي واذا اعتبرنا الصلة الوثيقة بين القيروان والمغرب قبل أن تزدهر بالأندلس الحضارة الأموية فى اطارها الجديد امكننا القول بأن الشام كانت الينبوع المشترك للحضارتين ما لبث ان تعزز بمدد مباشر فى عهد الادارسة فاذا ما حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الأموية من نشأتها فى الشام الى امتدادها بالأندلس لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء والزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والترتيبات الادارية والسياسية والقضائية فى اشكالها ومصطلحاتها الا أن الأندلس لم تتصل بهذه المعطيات قبل وصول عبد الرحمن الداخل عام 137 حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي يحاول عبثا اقامة مملكة اموية لأن افواج اليمنيين والقيسيين ظلت فى صراع حدا البربر انفسهم الى النزوح الى الريف وطنجة واصيلا بين عامي 134 و 136 هـ ولم تكد الدولة الأموية الجديدة تستقر حتى وضع الادارسة بفاس اسسا عمرانية كانت وفرة مياهها وبساتينها وفنادقها وقيساريتها ومسجديها مظهرا خافتا لعاصمة دمشق

وسواء أكان هذا الاقتباس مباشرا او بواسطة فان الفاظا فارسية دخلت منذ هذا العصر الى المغرب ودخلت معها مسمياتها كما انتقلت الى المغرب فى نفس الفترة من الشام مصطلحات رومية (2) قليلة كالبستان ، والقسطاس ، والبطاقة ، والاسطرلاب ، والقنطار ، والقرمود ، والترياق ، والقنطرة والقيطون (3) والذي يجلعنا نرجح وجود هذه الالفاظ فى المصطلح الدارج بالمغرب منذ هذا العصر هو ان

---

1) ماضي افريقيا الشمالية — كوتيي ص 148 .
2) فقه اللغة طبعة 1378 — 1959 — القاهرة ص 450 — 455 .
3) دار القيطون بفاس اسسها المولى ادريس .

معظمها يمثل المظهر الجديد للحضارة الاسلامية التي بقي الشعر والشعراء فى منأى عن وصفها لانهم حتى فى دمشق ظلوا فى ابراجهم العاجية يبكون فى اسلوبهم الجاهلي على الاطلال ويتغنون بالماء الآسن فى عنفوان المدنية الناشئة .

واول مسجد على النسق المعماري الاسلامي فى المغرب هو ذلك الذي بناه سعيد بن صالح الحميري فى نكور (1) فى نهاية القرن الأول استمد فى تصميمه من جامع الاسكندرية التي ظلت مهبط الرواد المغاربة وعلى راسهم الصوفي احمد البدوي دفين طنطا وكانت البساطة آنذاك هي طابع الفن المعماري الذي لم يعرف بعد المقرنصات ولا التعاريج العربية (Arabesques والواقع أن انعدام الاقتباس من الطبيعة والامعان فى دراسة الرياضيات ونزعة الابداع حدت مسلمي الاندلس والقيروان ومصر ثم المغرب الى التسطيرات الهندسية الساذجة التي يظهر انها وسمت الزخرفة فى اوائل العصر الادريسي وكان استمرار الصراع فى الاندلس بين العناصر السلالية المختلفة من عرب وبربر وقوط عائقا دون تفتق الفن حيث لم تكد تمر ست سنوات (2) على تأسيس فاس حتى انحدرت الى المغرب ثلاثمائة اسرة قيروانية تلتها بعد اربع سنوات ثمانمائة عائلة جاءت من ارباض قرطبة معظمها من الفلاحين والمزارعين الذين استقروا بعدوة الاندلس ووصل بعضهم فازاز بالأطلس انتجاعا للحقول والمراعي الخصبة واشجار التوت لتربيةدود القز وصناعة الحرير (3)

---

1) مما يبرز تأثير الاندلس احداث الموالي الصقالبة لقرية تحمل اسمهم فوق مدينة نكور (المسالك والممالك للبكري طبعة الجزائر 1911 ص 97) .

2) تبلغ الأسر الاندلسية التي هاجرت الى فاس عام 202 هـ 818 م اربعة آلاف حسب عبد المالك الوراق وثمانية آلاف (روض القرطاس ص 25) ودوزى : تاريخ مسلمي الاندلس (1932 ج 1 ص 301) أو ثمانمائة (هنري طيراس — تاريخ المغرب ج 1 ص 118) بينما بلغ عدد الاسر الافريقية التي جاءت من القيروان عام 198 هـ ثلاثمائة ويظهر أن عدد الربضيين تراوح بين اربعمائة وثمانمائة اعتبارا للغلط المحتمل الناتج عن اضافة صفر للعدد ونظرا للتوازن الديموغرافي بين العدوتين وقد تحدث المقري فى النفح (ج 1 ص 318) عن الوقعة التي ادت الى طرد الاندلسيين فذكر أن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل انهمك فى لذاته فخلعه العلماء بقرطبة فأجلاهم عن الاندلس ولحقوا بفاس والاسكندرية ومنها الى جزيرة اقريطش .

3) ذكر ليفي بروفنصال ان الاندلسيين نقلوا معهم الى المغرب فن البستنة وكذلك تجربتهم للحياة الحضرية كالبناء والصناعة التقليدية (فاس قبل الحماية Fez avant le Protectorat وقد لاحظ لوطورنو (ص 205) انه اذا كان العرب قد نقلوا الى فاس مظاهر نبلهم فان الاندلسيين قد نقلوا رقتهم والقيروانيين مهارتهم واليهود حيلهم والبربر صمودهم . وقد اعطانا الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب فى كتابه « بساط العقيق » صورة عن حضارة القيروان حيث تحدث عن سماطها (يوجد شبهه بفاس وهو سماط العدول الا انه اصغر منه) وحماماتها العمومية (49 حماما) ومصانع الزربية (ذات الطابع القيرواني الخاص رغم أصلها الفارسى) والزجاج والبلور والورق ودار الطراز وكان قاضي القيروان شيخا للاسلام فى تونس أو قاضيا للجماعة كما فى فاس وقد لاحظ الاستاذ التونسي فى رسالة بالفرنسية أن الطبقة المتمدنة العتيقة من الاندلسيين قد نزلت مدينة =

بينما كان مهاجرو حاضرة القيروان من الفعلة الذين اقاموا فى عدوة القرويين الخلايا الأولى للحرف والصنائع اليدوية مدرجين بذلك فى المصطلح الصناعي والتجـــاري مفردات دخلت منذ ذلك فى التقاليد الحرفية لا نستطيع تحديدها بالضبط واذا اعتبرنا أن الوضع الحالي بفاس لا يختلف كثيرا عما كان عليه من حيث الهيكل العام فاننا نلاحظ أن عدوة القرويين تضم معظم مقومات الاقتصاد والثقافة والاجتماع ففيهـا القيساريات والحرف والمدارس والزوايا والفنادق ويبلغ عدد أحيائها اثنى عشـر مقابل نصفها فى عدوة الأندلس و 17 حماما و 96 كتابا قرآنيا بدل 24 وست مـدارس بدل اثنتين هذا وان جامع القرويين الذي أسس عام 245 هـ مع شبيهـه جامـع الأندلس على يد ام البنين واختها مريم الفهرية القيروانيتين لم يكن يثير الانتباه بفن جديد نظرا لعدم اختصاص بنائيه القيروانيين عدا تصميمه الغريب الـذي تتـوازى بلاطاته مع القبلة على غرار مسجد الشرفاء الادريسي وجامع ابن طولون بالقاهرة وجامعي بعلبك ودمشق وقد أضاف اليه الناصر الأموي عام 345 اي بعد مـرور قرن كامل على بنائه اثنى عشر بلاطا جديدا وحول المنارة الى مكانها الحالي مغشيا بابها « بصفائح النحاس الاصفر » مع « قبة صغيرة » محلاة « بتفاليح مموهـة بالذهب (1) وبذلك انبثقت النواة الاولى للفن الاندلسي المغربي البارز فى مسجـد قرطبة ومدينتي الزهراء والزاهرة حيث امتزج العنصر السوري بالفارسي والبيزنطي ولعل عهد الناصر الذي ازدهرت فيه الفلاحة والصناعة والتجارة والفنون والعلـوم (2) بالاندلس كان عهد تحول وانقلاب فى تاريخ الحضارة المغربية التي بدات تتخـذ بالعاصمة الادريسية سمات جديدة فى شتى المجالات ، تقل مع ذلك روعة وفخامة عن أصولها بقرطبة اذا اعتبرنا المضافات الاموية بجامع القرويين وقد انتشرت بدائع هذا الفن فى حواضر ادريسية كالبصرة واصيلا أصبحت تنافس مدينة فاس .

ومن الصعب أن نتعرف على العناصر الحضارية والمصطلحات التي تسربت الى فاس فى القرن الثالث الهجري وان كنا نعرف مما كتبه مؤرخون عرب أمثال الحميدي صاحب « جذوة المقتبس» وابن غالب صاحب «فرحة الأنفس» والحميري فى « الروض المعطار» والمقري فى النفح الكثير من ذلك بالنسبة للاندلس حيث اكتملت مظاهر المدنية فى

= تونس واختلطت باهلها وتلدهم الحفصيون الذين هم فرع عن الموحدين. وقد ذكر المقري عن ابن غالب (نفح الطيب ج 2 ص 764) أن أهل الاندلس تفرقوا فى المغرب الاقصى مع افريقية فمال أهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار واحدثوا الاراحي الطاحنة بالماء وعلموا أهل البادية اشياء جـــديـده .

ومعلوم أن الاندلسيين كانوا يحتكرون ببلادهم — حسب سرفانطيس مؤلف « دون كيشوط » تجارة الأغذية ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها وهم لا يشترون العقارات حفاظا على حرية رواج أموالهم .

1) زهـــرة الآس ص 37 .
2) ابن حوقل — طبعـــة ج 2 ص 77

الادارة والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران واول ما يبده الباحث حتى بالنسبة للامويين هو امتزاج العناصر الحضارية بسبب تداخل الاختصاصات وعدم فصل السلط حيث تندرج كثير من مقومات الدولة ضمن البلاط كالجامع والصدقات والاعشار والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والرسوم الموظفة على بيوع الأسواق والمكوس والمشرف (1) أو الأمين ودار السكة وخزانة الطب والحكمة واذا ما حاولنا أن نقارن بين مصطلحات هذا العصر والتعابير المغربية دون تحديد لاطارها الزمني فاننا نلاحظ ان اغلبها متقاربة عدا كلمات لم يعرفها المغرب مثل صاحب البنيان وصاحب البيازرة والاسجال الخراجية وصاحب القطوع (اي الجبايات المرسومة على الاقطاعات) وصاحب الرد (رئيس قسم الشكايات بالقصر الملكي) والكور المجندة والجند المتدون (اي المسجل فى الديوان) وفحص السرادق (اي مكان تقام فيه حفلة البروز لتوديع البعوث العسكرية وعقد الألوية) والمهرجان (عيد موسمي منه العنصرة التي تعرف بالمغرب) على أن معظم اسماء الحرف موحدة وكذلك اسماء الازهار والاعشاب والمصنوعات اليدوية وغيرها (2) واستمر هذا الاقتباس طوال قرن ونصف قرن بدافع من بني زيري وخلفاء المنصور بن أبي عامر الى ان اصبحت الاندلس جزءا من العدوة الجنوبية تحت حكم المرابطين الذين استدعى زعيمهم يوسف بن تاشفين رجال الحرف القرطبيين لاقامة المساجد والسقايات والحمامات والفنادق بفاس (3) ودار الامة بمراكش بينما استعان نجله علي بن يوسف بمهندسي الأندلس لمد قنطرة تنسيفت (4) وقنوات الماء وبناء دار الحجر بمراكش (5) وكان لوحدة افريقية والمغرب الاقصى حينئذ اثرها فى ضم الآثار القيروانية الى المدد الأندلسي غير أن من الصعب تمييز الأثرين بوضوح لأن جامع القيروان نفسه دخلت فيه مواد اندلسية كالمرمر والآجر والجبس عند تجديده على يد محمد بن حمدون الاندلسي عام 252 هـ ولم ينس المرابطون الصحراويون اقامة القصبات والحصون فى عمرانهم العسكري الذي تعزز بتسوير الحواضر أيام علي بن يوسف بايعاز من ابن رشد الاندلسي واذا اردنا دليلا على مدى انسجام الصحراويين المغاربة مع روح العصر واستساغتهم للفن واساليبه ومصطلحاته فان ذلك يتجلى بوضوح فى الروائع الجديدة التي اضيفت لجامع القرويين الذي اتخذ حينذاك شكله الحالي بمنبره المصنوع من « الصندل والابنوس والعناب

---

1) هذه الكلمة معناها امين المال وقد استعملها الموحدون (زهرة الآس ص 872)
2) راجع القائمة الكاملة بهذه المصطلحات فى الملحق رقم 2 فى كتابنا « تطور الفكر واللغة فى المغرب الحديث » (طبعة القاهرة ص 213)
3) زهرة الآس ص 87 وجذوة الاقتباس ص 27 .
4) الادريسي — مقتطفات من النزهة — طبع الجزائر 1957 ص 69 .
5) الاستبصار — ترجمة ص 179

والعاج » (1) وقبته التي كشفتها الحفريات عام 1952 كانموذج للفن فى اروع مجاليه

وهكذا فالفعلة الاندلسيون الذين انتقلوا الى المغرب فى العصر المرابطي كانوا اذن اكثر اختصاصا من سلفهم وان كان عملهم لم يتجاوز نطاق هندسة المساجد وبعض المآثر العسكرية لان بداوة الملثمين وتقشفهم حالا دون تقبل عناصر حضارية طريفة زخرت بها آنذاك قرطبة واشبيلية كموسقى زرياب الذي احدث فى الاندلس ثورة جذرية فى المودات فكان بحق « مشرع اسبانيا العربية » ، كما يقول دوزي — وظلت المراة المغربية بدوية الطبع رغم سفورها (2) لم تتفتح للثقافة عدا القليلات امثال زينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين والبطلة الموحدية فانو وام هانىء بنت القاضي عبد الحق بن عطية وحفصة الركونية استاذة نساء دار المنصور (3) بل استاذة عصرها (4) وام عمرو بنت ابى مروان بن زهر طبيبة النساء فى البلاط الموحدي وورقاء الفاسية الاديبة الشاعرة (5) وزينب القرقولية استاذة القراءات السبع بمراكش واغمات وزينب بنت يوسف بن عبد المومن التي ربيت بالاندلس فكانت صاحبة الراي فى البلاط والشغوف فى المجتمع وازاء هذه الندرة من المثقفات فى المغرب كانت نساء غرناطة يشهدن الحفلات العامة سافرات ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحرا ويتمتعن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية كما كان بالربض الشرقي لقرطبة وحده مائة وسبعون امراة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي الذي اتخذ فى هذا العصر اشكالا خاصة بالمغرب (6) ، فاذا استثنينا مثلا الخط الحجازي فان ترتيب الحروف تختلف بين الشرق والمغرب ابتداء من الزاي فهي عندنا .

ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و لا ي

بينما هي فى المشرق

س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م . ن ه و لا ي

والمغاربة يعجمون الفاء والقاف بنقط الاول بنقطة من اسفل والثاني بنقطة واحدةمن اعلى كما أن صور الأرقام فى المغرب عربية اصيلة ليست منقولة عن الرسم اللاتيني وقد ابرز ذلك الاختصاصيون فى المؤتمر الذي انعقد بتونس عام 1963 حيث اكدت الجامعة العربية عزمها على اصدار تعليماتها الى الدول الاعضاء لاعتبار الارقام المغربية هى الأصل والاقتصار عليها فى العد والترقيم .

---

1) زهرة الآس ص 42
2) حتى الاميرات لم يكن يتحجبن مما حدا المهدي بن تومرت الى نقد سياسة البلاط الدينية للنيل منه سياسيا .
3) « الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور » ص 165 .
4) الاحاطة لابن الخطيب .
5) جذوة الاقتباس ص 335 .
6) راجع الملحق رقم 4 من كتابنا المذكور « تطور الفكر واللغة ... » ص 222

غير ان الموحدين تفزوا بالفن الى مستويات راقية بالرغم عما ابدوه فى البداية من روح التزمت (1) فاضافوا روائع جديدة الى المآثر الأموية تجلت فى المنارة الخالدة باشبيلية وجامع حسان بالرباط والكتبية بمراكش والقصور الفخمة والحدائق الغناء (على غرار مسرة المرابطين المعروفة الآن بالمنارة) ونضرب مثلا لهذه الروعة بمنبر الكتبية الذي يرجع الى عهد عبد المومن (2) والذي قارنه ابن مرزوق بمنبر جامع قرطبة واعتبره طيراس وباسي « اجمل ما ابدعه الغرب الاسلامي بل العالم الاسلامي » ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية فى المغرب الكبير قد تجلت خاصة فى تجديد الاتصال بين الفن المغربي الاندلسي والفنيين المصرى والعراقي السائدين فى بجاية ومهدية وتونس الخضراء (3) وبذلك تعززت الوصلة بين جناحي العروبة واندرجت فى المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصارة الاحتكاك الموصول طوال خمسة قرون وبذلك يكون فى وسعنا اعتبارا لهذه المعطيات ان نستخلص بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية من خلال اسماء الحرف التي ظلت الى القرن الحالي الصناعة الأساسية لنصف سكان الحواضر (4) فمصطلحات الحرف بمراكش كانت تحتوي نظرا لقرب العاصمة من الصحراء على كلمات بلدية أو حضرية معدودة مثل بعدى (اي اسكافي بدوي) وخطاطري (حفار الخطارات اي السواقي الصحراوية) وتكموتي (صائغ) وقراشلي (حلاج) فى حين تزخر بالألفاظ العربية التي حرف بعضها تسهيلا للنطق بها مثل بامهاود (اي ابو المهاودة وهو حكم يتدخل بين الناس للمهاودة) ومواكنى (مصلح المنجانات)

---

1) وقد امر المنصور الموحدي « بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل والاكتفاء منه بالساذج القليل وامر باخراج ما كان فى المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت .. » (البيان المغرب لابن عذاري ج 4 ص 81)
ففي زمن المنصور والناصر الموحديين كان عدد الأطرزة بفاس 3094 ودور الصابون 47 ودور الدباغة 86 والصباغة 161 وتسكيك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وافران الخبز 1170 واحجار صنع الكاغد (اي الورق وهي كلمة تركية) اربعمائة ودور الفخارة 180 (زهرة الآس للجزنائي ص 33) وقد بلغت الأرحي بفاس 600 فى القرن السابع (حسب ياقوت المتوفى عام 626 هـ فى معجمه ج 6 ص 331) .

2) المسند الصحيح الحسن ص 65 — 1925 .

3) ويليام مارسي فى كتابه حول تاريخ الفن الاسلامي .

4) راجع احصاء قام به ماسينيون عام 1923 — 1924 فى كتابنا « معطيات الحضارة المغربية » ج 2 ص 78 . (الحناطي الاسلامية — باريس 1925 ص 38 وقد كان نظام الحناطي (اي النقابات العمالية) يتسم فى جميع العصور بطابع الحرية حيث ظل المخزن يحترم مبدا الحرية التجارية والاقتصادية قبل صدور ظهير 1917 القاضي بتنظيم البلديات .

وغواسلي (بائع الغاسول) وظل معظمها مما ينيف على المائة في قالبه العربي الفصيح مثل التبان (بائع التبن) والجرار والحراث والحمار والحمائمي (بائع الحمام) والخراط والرحوي (صاحب الرحى المائية) والطاحوني (صاحب المطحنة أو الطاحونة التي تدار بحركة بغل أو حمار) والرخايمي (صانع الرخام) والزيات والسفاط (صانع الاسفاط اي السلال) والعشاب والقطارني (بائع القطران) واللباد (صانع اللبد) ، أما مصطلحات الحرف والمؤسسات العمومية وغيرها بفاس فاذا استثنينا بعض الدخيل فان الكلمات البربرية أقل بينما تظهر الفاظ خاصة مثل مقدم الحومة ودار معلمة (وهي مدرسة لتعليم الخياطة والتطريز للبنات) وشيوخ الفلاحة (وهم خبراء في الشؤون الزراعية من أصل اندلسي) ودار العميان والمرقطان وسوق الفرش (اي صنع المخاد والحشايا) ومعاصر الزيت وكعب غزال (فارسي) والبلاحة (صانعو الاقفال) وصناع الاسلحة الاختصاصيين مثل الجعابية (لصنع جعاب المسدسات) والسرايرية (لصنع مقابضها) والجوايين (لصنع الاغمدة) والصقالة والذهابين والسكاكين والبراولية (باعة خيوط الحرير) والزرادخية (باعة القماش من نوع الزردخان) والنيارة (صانعوا نول النساج) واذا أخذنا مثالا لباقي المدن المغربية في شخص أصغر مدينة وهي ميناء أزمور لاحظنا وجود معظم هذه الحرف عدا التنويع في النسيج وحرف جديدة كحرفة البغازة وهم بائعوا السمك بالجملة والشراحة وهم مجففوا الحوت ، وهنالك الفاظ مغربية اندلسية مبتكرة مثل القبال والقابض بدل الجمركي والجابي وقد استدل السيد محمد علي بهاتين الكلمتين للتدليل على أصالة الابداع اللغوي في المغرب والأندلس (عجائب اللهجات ــ مجلة مجمع اللغة العربية ج 7 ص 128 عام 1953) ويلوح لأول وهلة من مقارنة نوع المصطلح في عاصمتي الشمال والجنوب مدى تأثر فاس بالحضارة الاندلسية حيث بدأت تظهر مؤسسات اجتماعية واختصاص ادق في بعض المرافق الصناعية بالعاصمة الادريسية ولا بدع في ذلك اذا اعتبرنا أن مدينة فاس أصبحت في عصر الموحدين (1) « حاضرة المغرب » الفكرية اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة « ولا يوجد في الدنيا أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات منها » كما يقول المراكشي ــ بشيء غير قليل من الغلو على أن الفن بفاس أصبح مزيجا للكثير من العناصر العربية فاذا ضربنا بالزليج الذي عرف في الشرق بالفسيفساء لاحظنا انه نوع من الترصيع الخزفي أصله بيزنطي كان يصنع منه بالاندلس نوع من المفضض

1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب بسلا عام 1357 ــ 1938 (ص 213 ــ 221) لعبد الواحد المراكشي .

المعروف فى الشرق بالفسيفساء (1) والترصيع هو التكفيت (كلمة تركية) لها مرادفات منها التلبيس والترسيب والتنزيل اصحها عند العرب فى العهد العباسي التطبيق وفن الترصيع سوري فى اصله يعرف باوربا الى الآن بالفن الدمشقى damasquinage وقد دخل الفن العربي الى ايطاليا وبعد الحروب الصليبية غزت المنسوجات العربية الأقطار الاوروبية حتى اضطر احد ملوك فرنسا الى تحديد ايرادها (2) .

وقد شمل التعريب معظم المواد والآلات والاجهزة والأدوات التي استعملها الصانع المغربي الى العصر الحديث وتكفي القاء نظرة على معجمنا « الاصول العربية فى العامية المغربية » للتعرف على مدى فصاحة الاستعراب فى هذه المفردات التي نجد منها فى الصفحات الأولى للمعجم الفاظا كالاشفى (مخرز الاسكافي) والبريمة والبرمة والبرميل والبوطة والبلور والتبان والترس وتفصيلة الثوب وتكريشه (تقبيضه) والتكة والتنجرة والتومة (القرط) والثلج والخبل (لفظة يمنية) والحنوط والخرقة والخميرة والخنجر ، ثم ان الفكر العلمي الاندلسي الذي حماه البلاط الموحدي بمراكش لم يكن ليخلو من مظاهر اجتماعية تمثله مثال ذلك البيمارستان (3) الذي احتوى على « النقوش البديعة والزخاريف المحكمة » وغرست فيه « الاشجار المثمومات والماكولات » واجريت فيه « مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك فى وسطه احداها رخام ابيض » وماله من « الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم » وتزويده بالادوية والصيادلة » لعمل الاشربة والادهان والاكحال مع ثياب الليل والنهار للمرضى ومجانية العلاج ورعاية المنصور الموحدي الشخصية له بزيارة اسبوعية لتفقد حال المرضى وقد اشاد مؤرخ فرنسي معاصر بهذا المستشفى الذي بذ فى نظره مستشفيات باريس فى عنفوان القرن العشرين (4) .

وقد رأينا كيف بلغ المصطلح العلمي اوجه فى هذه الفترة التي آوى خلالها العرش المغربي فى ظلال مراكش الحمراء اقطاب الفكر الاندلسي الذين مهدوا بكشوفهم العلمية فى شتى الميادين عهد النهضة والانبعاث باوربا حيث ظلوا اساتذتها المرموقين طوال قرون .

اما المرينيون الذين كانت لهم ارقى المقومات الملكية بالمغرب واغناها واحقها بتبني التراث الموحدي فى افريقية والاندلس فان مغربهم الزاهر كان منطلق الاشعاع

---

1) النفح نقلا عن ابن سعيد ج I ص 187 .
2) (اعراف المسلمين وعاداتهم ص 247)
3) المعجب ص 177 .
4) الموحدون les Almohades للسيد Millet طبعة 1927 .

فى مجموع الشمال الافريقي (1) حيث تبلورت مدنيتهم الحضرية فى أروع ما عرفه المغرب الكبير من حواضر ومساجد ومعاهد وقبب وفنادق ومدارس وملاجىء وحمامات وقناطر وحصون وخاصة فى عهد أبى الحسن المريني (1331 — 1351) الذي يعتبره المغربيون أقوى عاهل فى القرن الرابع عشر وقد كان لتزاوجهم الحضاري مع غرناطة النصرية وارثة الاندلس ذيول عززت التراث المشترك الذي ما لبث أن انتقل بكامله مع رجال المهجر الى المغرب ليشكل الحضارة المغربية الاندلسية الموحدة . وقد ظهرت فى الحقل الاجتماعي لأول مرة مدارس هي عبارة عن أحياء جامعية مجانية للطلبة فى مختلف المدن كفاس وتلمسان والجزائر (2) علاوة على قصور فخمة تجلت فيها مهارة المهندسين والفنانين فى تصميم معماري محكم ويمكن أن نقدر من خلال وصف (3) لأحد هذه القصور مدى تطور المصطلح الفني والانواع الجديدة من أرباب الصناعات كالبنائين والنجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين والجدارات المنقوشة بالجبس والزليج والأرز المحكم النجارة والصناعات المشتركة (كالتوريق والتسطير) مع فروش الرخام والزليج وطيافير (فسقيات) المرمر والقبب والخوخ (أى الابواب) والخزائن بنحاسها المموه بالذهب والحديد المقصدر ، غير أن هذه المظاهر الحضارية لم تتجاوز المدن لأن البادية (أي الارياف والسواد) ظلت نسبيا فى معزل عن تياراتها بسيطة فى سكنها ومطعمها وسلوكها قد حفظت تراثا لغويا أصيلا ما زالت الحواضر تطعمه تدريجيا استجابة لمقتضيات العصر وسنرى كيف أن قبائل عاشت فى أرياض عواصم كرباط الفتح ظلت عالقة الى عهد حديث بتراثها اللغوي الجاهلي الخالي من اية شائبة الأمر الذي أسفر عن نوع من الخلل بين المصطلح الكلاسيكي القديم ومولدات العصر الحديث .

وقد توافرت هذه المجالي الحضارية ولوازمها اللغوية العربية التركية فى العصر السعدي عندما اقتبس المغرب بعض الانظمة العسكرية العثمانية كما دخلت

---

1) مارسي Marçais فى كتابه « L'Art dans l'Islam » ص 134) وقد ظهرت فى هذا العصر نتيجة للتاثير الغرناطي الموسيقي الاندلسية بمصطلحاتها وبعض التعابير القانونية مثل لفظة الظهير بمعنى المرسوم الملكي (صبح الاعشى ج 15 ص 299)
وقد اسهم العلماء والأدباء فى الصناعة والتجارة مما اكسب الكثير من المصطلحات طابعا نصيحا ومنهم محمد الغساني الذي كان تاجرا بقيسارية آسفي يدير حانوته بعد الفراغ من تدريس الموطأ والسير والنحو والآداب واللغة وهو من رجال القرن السابع (توفى عام 663 هـ (الذيل والتكملة) ومنهم كذلك العلامة محمد بن عبد الله معن الذي كان يتمعش (كلمة مغربية معناها يتعيش بعمل دود القز بفاس (نشر المثاني فى ترجمة علماء القرنين الحادي عشر والثاني (ج 1 ص 197) .
2) نخب من « المسند الصحيح الحسن فى مآثر ابى الحسن » لابن مرزوق .
3) نفس المصدر حيث اشار ابن مرزوق الى وضع تصميم معماري لهذا القصر وصفه بانه رسم فى كاغد لتقدير الساحة (أي المساحة) .

الى المغرب افواج المهاجرين الاندلسيين بلغت فى مدن كتطوان اربعين الفا فيهم الاديب والعالم والفنان والعامل المختص والتاجر والفلاح واذا كانت هذه المظاهر تنعكس على العادات الاجتماعية والمآثر العمرانية ، فاننا نلاحظ فى خصوص الأزياء مثلا ان سكان حواضر اندلسية مثل فاس وتطوان والرباط اصبحوا يضعون على رؤوسهم قلانس حمراء قد لفت عليها عمامة تتوسطها شوشة زرقاء (اي نواسة) بعد النفي العام أوائل القرس السادس عشر الميلادي لأن الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة بالاندلس قبل عضور التحقيق الصليبي (Inquisitions) حيث أجبر الاسبان العرب المسحين على التميز بشارة زرقاء (1) .

ولباس البياض فى مناسبات وفصول خاصة هو أيضا عادة اندلسية حيث كان هؤلاء يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض ابتداء من يوم المهرجان (اي العنصرة كما تسمى فى العدوتين) اي 24 يونيه وذلك الى اول اكتوبر خلال ثلاثة اشهر متوالية (النفح ج 2 ص 752) .

أما فى الحقل العمراني فان « قصر البديع » الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين سنة (986 هـ — 1002 هـ) يبرز لنا مدى التطور الحاصل فى الفكر الحضاري ولغته فقد ظهرت معه فنون طريفة ومصطلحات فريدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية (2) كتبت فى ابهائها الأشعار بمرمر أسود فى أبيض تذكرنا بروائع الاندلس : فمن شعر ابي فارس عبد العزيز الفشتالي يصف فن هذه الروائع :

فانهـا والتبر سال خلالهـا ... وشي وفضة تربهـا كافور
وكأن أرض قراره ديباجة ... قد زان حسن طرازها تشجير
وكأن موج البركتين امامه ... حركات سحب صافحته دبور
صفت بضفتها تماثل فضة ... ملك النفوس بحسنها تصوير

---

1) فى عام 1019 هـ هاجرت الوف الاندلسيين الى فاس والوف الى تلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاعراب ونهبوا اموالهم فى تلمسان وفاس وسلم اكثرهم فى تونس وتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل جماعة الى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نشر المثاني عن النفح ص 101) .

2) اي التي فيها خمسون ذراعا بالعمل اي بالنقش وكانت الجدران تحلى أحيانا بأنواع التطريز ومنه النوع الفاسي الذي هو سوري الأصل وفى سلا نماذج من أصل فارسي او شامي ويلاحظ فى تطريز الرباط تأثير الانسجة الاوربية وكذلك فى ازمور التي يرجع تاريخ نماذجها الاسبانية الايطالية الى القرن العاشر الهجري (مجلة هسبريس ج 21 عام 1935) .

ويوجد بفاس تطريز علجي الأصل ادخلته الى المغرب النساء التركيات او الجركسيات اللواتي تسرى بهن أهل فاس أما التطريز التطواني فهو من أصل بلقاني .

وقد كتب بجدران المصرية (1) المطلة على الرياض :

باكر لدي من السرور كؤوسا وارض النديم اهلة وشموسا

وكان هذا الاطار العمراني الرائق مسرحا لحفلات شعبية بمناسبة حفـــلات كذكرى المولد النبوي يجري خلالها اعذار ابناء الفقراء ويتبارى الشماعون فى تطريز شموع « يحملها صحافون ــ كما يقول الفشتالي فى مناهل الصفا ــ محترفون بحمل خدور العراش عند الزفاف » وهي على رؤوسهم كالعذاري تتبعها الاطبال والأبـــواق وأصحاب المعازف والملاهي حتى تستوي على منصات بالديوان الشريف حيث يقعد السلطان على اريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة وامامه شموع من بيـــض كالدمي وحمر جليت فى ملابس ارجوان وخضر سندسية فى حسك ومباخر ترنم خلالها توبات منشدي المولديات واشعار الصوفية وتتلى قصائد شعراء الدولة بغزلهـــا ونسيبها ومديحها للرسول عليه السلام وللسلطان وولي عهده فى تراتيب يتقدمهـــا قاضي الجماعة ثم الامام المفتى ثم الوزير ثم الكتاب المخزنيون ويختم الحفل بنشـــر « خوان الأطعمة والموائد ، وتوزيع الاعطيات » وكأن هذه القصور الباذخة فى فرشها الحريرية ونمارقها المصطفة واستارها وكللها وحجالها المخوصة بالذهب وحائطياتها ووصفانها واعلاجها بأقبيتهم المخوصة ومناطقهم المرصعة وحزمهم المذهبة ــ صور حية لفخفخة استمرت معالمها فى القرن العشرين فى بلاط الملوك العلويين وقصـــور الاثرياء حيث استعيض عن القصاع المالقية والبلنسية المذهبة وعن الأواني التركية والهندية والطسوت والاباريق والصحاف ومباخر العنبر والعود الشرقية بأوعية لا تقل روعة قد جلبت من مختلف انحاء الدنيا شرقا وغربا لتضفي هالة من الجمـــال والسناء على محافل نشرت فيها كالماضي اغصان الريحان الغض وماء الزهر والورد. كما استبدلت بنوبات المنشدين نوبات الموسيقى الاندلسية الرائعة التي تسحـــر الالباب بنغماتها المشجية وتلاحينها الأخاذة وألوانها الخمسة والخمسين وتوشيحاتها التي تردد فى حنان وخشوع على السنة الخاصة والعامة لتسهم فى تحريك نبـــرات القلوب وتوعية الروح وتاجيج الشعور وتوفير الثراء اللغوي فى الدارجة والفصحى على السواء فكم من تعابير تخللت الالحان كانت ارسخ فى البواطن وأملك للوعي وكم من اغنيات ساحرة رددها الرضيع فى حبوه وربة الخدر فى حجلتها كان اثرها اوقع فى النفس ولفظها اعلق باللسان من كل قصيد يلقن فى الكتاب او درس لغوي يلقى فى حلقـــات العلـــم .

---

1) المصرية اي الغرفة الواقعة فى طبقة عليا (العلية بالفصحى) ولعل لوجـــود طبقات فى الأبنية منذ القديم بمصر اثرا فى هذه التسمية .

واذا كان عهد السعديين قد نضدت معالمه بالزخارف المعمارية والروائع الاجتماعية فان عهد العلويين الذي اقيمت فيه نفس القصور والبساتين مثل دار الهناء والدار البيضاء والصالحة والزاهرة وجنان رضوان وأجدال بنفس البذخ قد اتجه الى دعم الكيان بالقصبات والقلاع ومن أروع ما يبدهك فى قصر من هذه القصور كقصر الرياض بمكناس عاصمة المولى اسماعيل جمعه بين فخفخة البلاطات الملكية وضخامة التحصينات بأبراجها ومدافعها ازاء البرك الفياضة للتمرين والانبساط معا فى فلكها وزوارقها وكانت أهراء القصر تضم اثني عشر الفا من خيل الجهاد وعشرات المستودعات زاخرة بمؤن تكفل للبلاد اكتفاء ذاتيا وميزانا تجاريا متوازيا وقد بدانا بالرغم عن أصالة اللغة العربية بالمغرب نسمع فى معماريات العلويين وعمرانياتهم مصطلحات جديدة فيها الكثير من الدخيل كالقنانيط (أي الهياكل) المقبوة فى الأهراء والاصطبلات المسقفة بالبرشلة (وهي نوع من الروافد والعوارض pignon وسواني الماء الدائرة (أي النواعير المائية) والقراميد علاوة على المولدات العسكرية والدبلوماسية واتخاذ الأشبار (أي حفر الخنادق الحربية) وصنع البارود الكور والبنب (أي القنابل والقذائف) ونصب المهاريس والكراريص (أي المدافع المجرورة والضوبلي) لتحرير الثغور المحتلة وبعث الباشدورات الى طواغية (جمع طاغية) الاصبنيول او البرتغال او النجليز « لاحكام الصلح » ومفاداة الأسرى البلوط بالبلوط واليكانجي باليكانجي والبحري بالبحري دعما للطبجية (أي المدفعية) والبحرية المغربية بغلائطها (سفنها الحربية) وفراكطها (أي حراقاتها) ومراكبها القرصانية ودخلت الى المعجم المغربي بجانب ذلك عشرات المفردات مثل الكشينة (1) والباصبورط (الجواز) والطنبور والكرنتينة (المحجر الصحي) والمحلة (أي المعسكر) وصاكة الاعشار (أي رسومها) وصقالة (أي برج) والتوافل (الرماح) وتفرقع البونب (ي انفجار القنابل) والبستيون (2) وأنواع النقود كالبندقي فى أربعين أوقية من الذهب والضبلون (doublon) فى اثنين وثلاثين من الريال (الريال real فيه عشرون أوقية) والبسيطة (خمس أواق) والموزونة (ربع الدرهم الرباعي اي نصف القرش)

---

1) راجع النفحة المسكية فى السفارة التركية لعلي بن محمد التامجروتي .

2) ظهرت هذه الكلمة منذ السعديين وقد استعمل الناصري فى تاريخ المغرب هذه المصطلحات التي بدا يستعملها آنذاك سلفه من المؤرخين وقد استعرض الناصري (ص 224) النظام العسكري عند الاتراك فلاحظ أن اهم ما يمتازون به هو العزوف عن العادات الاجنبية والمصطلحات العجمية حيث « عمت المصيبة فى عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم واذا كان اصل العمل مأخوذا عن العجم فليجتهد المعلم الحاذق فى تعريبه » . (راجع الاستقصا الجزء الرابع)

والسنجق (1) وبقسماط (بسكويت) وكل تلك مظاهر للعجمة التي بدأ المجتمع المغربي يتسم بها حيث « اتخذ ذوو اليسار — كما يقول الناصري المراكب الفارهة والكسي الرفيعة والذخائر النفيسة وتأنقوا فى البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لاسيما بفاس ورباط الفتح ولاحت على الناس سمة الحضارة الاعجمية » التي تعززت مع ذلك بمقتبسات غربية صالحة مثل فابريكة (أي مصنع) السكر وفابريكة تزديج البارود بمراكش وبرج الفنار (لتوجيه السفن فى البحر) باشقار قرب طنجة وبابور البر (القطار الحديدي) والتلغراف الى غير ذلك وهكذا بدات تتجلى فى الأفق المغربي على عتبة القرن العشرين مصطلحات استعملها المغرب فى قالبها الافرنجي دون تعديل وقد تحدثنا فى كتابنا « تطور الفكر واللغة .. » (ص 161) عن ظهور هذا الدخيل خلال الحماية وبعد الاستقلال فأوضحنا كيف تمت وحدة نسبية بين جناحي العروبة عندما ظهرت الصحافة المغربية واشرابت الاعناق الى ما يرد من الشرق العربي وخاصة من الشام ومصر حيث انبثقت حضارة طريفة ضمت الى جوهر الاسلام ومعطياته جوانب من الفكر الغربي الحديث

1) الاستقصا ج 4 ص 233 يصف الوضع بالمغرب عام 1290 هـ وقد شارك الصانع المغربي فى معرض باريس عام 1285 هـ (أي فى عهد نابليون الثالث) بنماذج من انتاجه كالسروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيفه .